يالمصيبة!

Le Suicide d'A. M. Sa'dûn.

اطلق عبدالمحسن بك السعدون رصاصة على قلبه في نحو الساعة العاشرة إلّا ربعا من مساء الـ ١٣ من تشرين الاول المنصرم فتردد صداها في الديار الضادية اللسان ولا يزال يتردد الى هذه الساعة . بل سيتردد الى آخر الدهر للاسباب التي حملته على هذا الانتحار الذي لم يسبق له مثيل .

ونحن ندرج هنا ما كتبه صديقنا الفاضل سليم حسون في « العالم العربي» ثم نشفعه بما كتبه الشيخ علي الشرقي في جريدة « البلاد» وقد جاد علينا صاحبها باعارته ايانا صورة الراحل العظيم مع مثال ابنه المتغرب في انكلترة لتلقي العلوم وابنه الاخر واصف بك الدارس في بغداد ورسم فهد باشا السعدون والد فقيدنا العظيم . فنشكر صاحب « البلاد » على هداياه ومكارم اخلاقه .

قبل الانتحار وبعده

١ — قبل الفاجعة بيوم واحد

اخبرنا بعض زملاء المغفور له عبد المحسن بك السعدون انه كان بعد عصر نهار الثلاثاء (١٢ـ١١ـ٢٩) في بناية حزب التقدم يتكلم على عادته ، في حديث خاص ، مع جماعة من الرفقاء وهم خالد بك سليمان ، وعز الدين النقيب ، وعبد الرحمن المطير ، وزامل المناع ...

ثم دار الحديث حول الجلسة النيابية التي كانت قد عقدت قبل يوم ، واشتدت فيها المعارضة العنيفة على المنهاج الوزاري . فبدأ التأثر يلوح على وجه المرحوم ، ويمحو من ثغره الابتسامة اللطيفة المعتادة واذا به — رحمه الله — يقول في ضيق وهدوء : « انتم يا حزب الاكثرية ، لم تعاونوني في الجلسة النيابية الاخيرة ! » .

فقالوا له : « لقد تذاكرنا في الحزب ، وقررنا موافقتنا على جواب خطاب العرش ... وكانت هيأة الحزب العامة معكم ... فقررت التصويت على قبول

وقف
بخانه اسلامی دفتر تبلیغات
اسلامی «قم»

فقيد الوطن

المغفور له فخامة الوزير الاعظم عبد المحسن بك السعدون

جواب الخطاب ... وهكذا تم . ولم ير افراد الحزب من الموافق ان يدافعوا عنكم ، فانكم كنتم اقوياء . وقد ظهرت النتيجة في التصويت ... »

قال ـ رحمه الله ـ « نعم ، ولكني كنت احب ان يتكلم بعضكم ، ويرد على المعارضة ، لان الناس ـ كما تعلمون ـ عقولهم في عيونهم ! ... »

ثم تبدل الحديث ، وشرع ـ رحمه الله ـ يبحث في شأن جنينة بناية الحزب ووجوب تزيينها بالزهور . وأرسل في طلب زهور مزروعة في الاواني من بيت سركيس فجيء بما طلب . ثم ذهب الى النادي العراقي كعادته .

٢ — في نهار الاربعاء ، قبل ساعة الانتحار

في عصر الاربعاء ـ يوم الانتحار ـ كان ـ رحمه الله ـ في بناية الحزب وجرى له مع رفقائه حديث خاص ، اشبه بالحديث الذي ذكرناه اعلاه . وكان الثأر ايضا باديا على ملامحه . ثم ذهب واياهم الى النادي العراقي مشيا .

ولعب « لعبة الرامي » مدة قليلة من الزمن . وفي اثناء اللعب تقدم اليه خالد سليمان ، وقال له : « انا رائح الى البيت ، اتحب ان نروح سوية ؟ » اجابه المرحوم : « كلا ، أنا أريد ان ابقى هنا ، بضع دقائق ايضا » .

وقاربت الساعة ان تدق الثامنة (زوالية) مساء ... فضحك المرحوم ملاحظا خالدا وقال : « كان خالد معي في المدرسة ولكنه كان له شوارب كبيرة » .

فقال خالد ضاحكا : « اي نعم كانت شواربي كشوارب (قوجاغلي) الذي كان يلف شواربه حول آذانه » !

وضحك الجميع في انس وطرب . وذهب خالد بك الى بيته في محلة البتاويين ، على طريق بيت السعدون في الكرادة الشرقية .

٣ — آخر طعام وكلام مع العائلة

بعد ان قام خالد بك سليمان ببضع دقائق ، ترك عبدالمحسن بك ايضا النادي وعاد الى داره . وتعشى مع حضرة قرينته ، وابنته الكبيرة الانسة عائدة و (عمرها ١٥ سنة) وابنه واصف (وعمره ١١ سنة) وابنته الصغيرة نجلاء (وعمرها ٩ سنوات) .

واصف بك السعدون النجل الاصغر للفقيد

وكان حديثه مع قرينته واولاده في ذلك العشاء الاخير على جانب عظيم من اللطف لم يسبق له مثيل! ... من ذلك انه قال لزوجته : « ما بالك لا تقيمين مأدبة شاي لقرينة المعتمد السامي ؟.. »

قالت : « انا منحرفة المزاج منذ ١٢ يوما . وطباخنا قد ترك وظيفته . ولا احب اشتراء الحلويات من السوق انما اوثر ان تصنع في البيت على العادة... ولهذا السبب ارجوك ان تعذرني الان ... »

فابتسم وقال على سبيل المداعبة والملاطفة « انك لا تقبلين فكري ! »

قالت : وكيف لا أقبل فكرك ؟ انا دائما اقبل فكرك ! »

قال : اي نعم ! انا اقر بهذا . وبانك تعملين دائما بحسب فكري !.. »

وكذلك داعب اولاده ولاطفهم بمزيد الشفقة كأنه يودعهم وهم لا يدركون!

٤ — آخر كتاب كتبه لابنه وللامة جمعاء

ثم دخل الى مكتبه الكائن ازاء غرفة الطعام ودخلت العائلة والاولاد الى احدى غرف الحرم .

وظل — رحمه الله — في مكتبه مدة من الزمن كتب في اثنائها كتاب وصيته الى نجله علي بك الدارس في معهد « برمنكهام » في انكلترة . والله وحده يعلم العواطف العجيبة الفائقة الوصف التي بهـا تخيل ابنـه امام عينيه في ساعة الانتحـار . فكلمه بقلمه . فضـلا عما قاله له بقلمه المرتجف في تلك الدقيقة الرهيبة التي كانت آخر مسافة بين حياته الفانية . وحياته الابدية الخالدة !

٥ — الكتاب الخالد الذي اصبح ميثاق الامة العراقية

هذه هي ترجمة كتاب الوصية الذي كتبه فقيد الوطن لنجله علي بك :

علي بك السعدون ممثل الامة العراقية في كتاب الوصية

عيني ومدار استنادي بني علي :

اعف عني من اجل الجناية التي ارتكبتها . لاني سئمت هذه الحياة وضجرت منها . لم ار من حياتي لذة ولا ذوقاً ولا شرفاً . الامة تنتظر الخدمة . الانكليز لا يوافقون . ليس لي ظهير العراقيون الذين يطلبون الاستقلال ضعفاء وعاجزون ويعيدون كثيراً عن الاستقلال . هم عاجزون عن تقدير نصائح امثالي من اصحاب الشرف . يظنونني خائناً للوطن وعبداً للانكليز ما أعظم هذه المصيبة ! انا الفداء لوطني الاكثر اخلاصاً قد صبرت على انواع الاهانات وتحملت انواع المذلات . وما ذلك الا من اجل هذه البقعة المباركة التي عاش فيها آبائي واجدادي مرفهين .

يا بني ان نصيحتي الاخيرة لك هي :

(١) ان ترحم اخوتك الصغار الذين سيبقون يتامى ، (وتحترم والدتك) وتخلص لوطنك .

(٢) ان تخلص للملك فيصل وذريته اخلاصاً مطلقاً .

اعف عني يا بني علي ! عبدالمحسن السعدون

وكان رحمه الله قد ارسل الى نجله علي بك في النهار عينه بكتابين آخرين مسجلين ولكن احدهما كان من الانسة عائدة ابنته الكبيرة .

٦ — الانتحار

بعد كتابة الكتاب خرج — رحمه الله — من مكتبه واخذ يصعد الى الطابق الاعلى . فرأته حضرة قرينته يمشي ويصعد منزعجا انزعاجا غريبا ، وقالت بعد الفاجعة ما ملخصه :

« ما رأيته قط يمشي مثل تلك المشية . فساورني الرعب . فتبعته الى غرفة النوم . فرأيته « يحشو » المسدس ! فركضت مسرعة اليه وقلت له : اواه ! ما ذا تعمل ؟ ولاي سبب تعمل هذا ؟ فقال لي : دعيني ! قلت : لا والله لا يمكن أن أدعك ! فان كنت تريد أن تعمل شيئا ، فاقتلني ، اقتلني أولا ياسيدي !... قال : دعيني ، وإلا قتلتك !.. فصحت به مذعورة باكية : اقتلني ! وقبضت على يده فحاول التملص مني . وتوجه الى جهة باب الشرفة (البالكون) فاوشك أن يصل الشرفة وأنا ماسكة يده اليسرى ، وفي اعتقادي اني مانعته بهذه المسكة . ولكن — ويا للاسف — كان المسدس في جيبه الايمن وهو قابض عليه بيمناه وأنا غائبة عن رشدي ، وما أفقت إلا وصوت الطلقة النارية يدوي في الشرفة وكانت رجله الواحدة في الغرفة والاخرى في الشرفة ، فوقع على الحضيض ! »

وعلى صوت الطلق الناري ، أسرع الشرطي أمين الذي في دار الفقيد العظيم. فرفعه ووضعه في فراشه في الغرفة . وتراكض الاولاد فتواقعوا هم ووالدتهم عليه يقبلون يديه ورجليه ويبكون .

٧ — بعد الانتحار

اسرعت الابنة الكبيرة الانسة عائدة الى التلفون فطلبت الدكتور خياط.

وكذلك اسرع الاخرون فارسلوا يطلبون عبد العزيز بك القصاب ، وخالد بك سليمان وغيرهما وحيث ان دار عبد العزيز بك القصاب قريبة جدا من دار الفقيد ،وصل عبد العزيز بك عاجلا الى المحل . فجثا عند سرير الفقيد الجليل ، وعبد العزيز بك يتخيل أن المغفور له يتنفس بعد ، وان عينيه تتحركان ... فكان يعانق الجثة ببكاء مر ، وذعر فائق ، يريد ان يصد الموت ! ... والظاهر ان عبد العزيز بك كانت عينه تخدعه — على ما ذكر الاطباء — لان الطلقة اماتت الفقيد العظيم حالا اذ انها اصابت مركز القلب .

وحضر الدكتور خياط مدير الصحة العام على جناح السرعة فعاين القتيل وتأكد انه مائت .

٨ — حضور الاصدقاء والوزراء والاطباء

قدم خالد بك سليمان فرأى عبد العزيز بك والدكتور خياط في دار الفقيد فصاح عبد العزيز قائلا : « لقد اضعنا عبد المحسن ! ... »

وتقدم خالد الى السرير ، فرأى العائلة تبكي بلا شعور . فبكى ، وبكى الجميع ولطموا وناحوا ! وهتفت الانسة عائدة تقول لخالد : « هات قلبك ياسيدي حتى نضعه في صدر بابا لعله يفيق ! ... »

وكان الولد الصغير واصف واخته الطفلة نجلاء « يمسدان » رجل والدهما ويحاولان ، بهذا ، ان يعيدا اليه الحركة !

واما السيدة قرينته فكانت واقعة على رجليه تقبلهما وتبكي حتى فقدت الشعور.

ووصل حينئذ ناجي باشا السويدي وشقيقه توفيق بك وياسين باشا الهاشمي فاشتركوا في التحنيب والتوديع ...

وقر الرأي على اخراج العائلة والاولاد من الغرفة وابقائهم في غرفة اخرى

مرکز مطالعات و تحقیقات اسلامی
سالن مرجع

واسعافهم ، خوفا من ان يذوبوا تماما من شدة الالم.

ثم حضر الطبيبان البريطانيان الدكتور دنلوب (مدير المستشفى الملكي) ، والدكتور وود من (مدير العمليات في المستشفى المذكور) ، فعاينا الجثة ، وتفقدا المسدس (وهو من طرز براونيك) وتفرسا في فوهة الجرح. واخذا يسألان اسئلة شتى فقال لهما عبد العزيز بك ان لا يتوهما فان الفقيد قد انتحر ، وقد كتب كتابا قبل الانتحار .

على ان عبدالعزيز بك كان قد نزل قبل وصول الاطباء الى مكتب الفقيد فرأى محفظته المتضمنة الاوراق الرسمية ، مفتوحة ، وفوق الاوراق كتاب الوصية ، وقد تركه المرحوم على هذه الصورة ليجلب نظر الدقة اليه .

فقرأه عبد العزيز بك وقدمه الى الحاضرين فرأوه وقرأوه باكين خاشعين!

وقدم كذلك رستم بك حيدر (رئيس الديوان الملكي والسكرتير الخاص لجلالة الملك) والعين آصف بك قاسم آغا ، والنائب محمود صبحي بك الدفتري والنائب خير الدين افندي العمري ، والحاج سليم بك مدير الشرطة العام وجميل بك المدفعي متصرف لواء بغداد : واحمد بك الراوي مدير شرطة لواء بغداد ، وحسين بك افنان مدير التشريفات ...

ووصلنا نحن ايضا ، الى محل الفاجعة ورأينا الجميع يبكون بتوجع شديد فاشتركنا معهم ولا نذكر اننا رأينا في حياتنا مثل ذلك الهول ، او مثل تلك المناحة « القلبية » .

٩ — شهادة الوزراء وغيرهم

اما الوزراء فحالما رأوا الكتاب وقرأوه قرروا ان يسجلوا شهاداتهم فيه .

فكتب توفيق بك السويدي في آخر الكتاب ما يلي : « هذا الكتاب قد وجد موضوعا فوق اوراق البيك الخاصة . وقد تلي امامنا ، واخذت صور منه من قبل الشرطة . وهذا هو اصل الكتاب ١٣ — ١٤ تشرين الثاني ١٩٢٩

وذيل هذه الشهادة بامضائه . اما الهاشمي باشا فكتب تحت الشهادة مايلي: « وهذا الذي تضمنا كبر برهان عن عظمة التضحية التي قام بها رجل العراق وفقيده».

وذيل الهاشمي باشا هذه الشهادة بامضائه ، وكذلك امضى كل من ناجي باشا

السويدي ، وعبدالعزيز بك القصاب ، وخالد بك سليمان ، وجميل بك المدفعي ، والحاج سليم بك ، واحمد بك الراوي ... ليحي ذكر عبد المحسن السعدون وتضحيته الوطنية العجيبة في قلب كل عراقي ! انتهى كلام سليم حسون .

عبد المحسن بك السعدون

قربان الاستقلال وضحية الحرية

ولد في ناصرية المنتفق في حوالي سنة ١٢٩٧ هجرية (١٨٨٠ م) وعاش ٥١ عاما . والده فهد باشا الذي توفي في سنة ١٣١٣ هجرية وعبد المحسن بك يوم ذاك في فروق (الاستانة) يدرس مع اخيه عبد الكريم بك . وله من الاخوة

المرحوم فهد باشا السعدون والد فقيدنا الاكبر عبدالمحسن بك السعدون

ما عدا عبد الكريم بك ، عبد الرزاق بك وهو الولد البكر لفهد باشا وعمره اليوم ٦٥ سنة ، ومحمد بك وعمره ٥٦ سنة ، وعبد العزيز بك وعمره ٥٠ ، وحامد بك وعمره ٤٥ ، وعبد اللطيف بك وعمره ٤٢ ، وعبد الهادي بك وعمره ٤٠ ، وعبد الرحمن بك وعمره ٣٦ ، وحمدي بك وعمره ٣٤ ، وعبد المجيد بك وعمره ٣٣ سنة والام التي انجبت عبد المحسن بك من علية بيوت آل سعدون ومن الاميرات السعدونيات ، وهي كريمة فيصل التركي آل رشيد ... ترعرع في حضن الشرف والامارة وبقي في بلاد المنتفق حتى بلغ من العمر ١٣ سنة.

وكانت قد تأسست في فروق مدرسة ابناء الزعماء والاشراف فرغب السلطان عبد الحميد الى فهد باشا في ان يرسل نخبة ابنائه الى فروق لينتسبوا الى تلك المدرسة وبالطبع كان المقصد من هذه الرغبة سياسيا فاختار فهد باشا من بين اولاده عبد المحسن بك ولكن عبد المحسن استوحش ان يفارق حي الامراء ونوادي الشيوخ نازحا مغتربا الى فروق فتطوع اخوه عبد الكريم بك الى مرافقته وحينئذ اطمأنت نفسه ورضي باخيه سلوى عن الاهل والوطن وتوجها معا الى الاستانة ولما خرجا من تلك المدرسة دخلا المدرسة الحربية العالية فخرجا منها ضابطين في الجيش واختارهما السلطان عبد الحميد مرافقين له في بلاطه «المابين» وبقيا كذلك الى اعلان الدستور وترقيا في اثناء ذلك في الجندية الى رتبة « بيك باشي » ولكنهما استقالا من « كذا » الجندية بعد سقوط عبد الحميد وانخرطا في سلك الاتحاديين

ورجع عبد الكريم الى الوطن وبقي عبد المحسن بك في فروق وكان قد اقترن بعقيلة نبيلة تركية من عائلة ضاربة في الشرف وطيب المحتد انجبت له شبلين علي بك وعمره ١٩ سنة وهو الان في جامعة برمنكهام في انكلترة . وواصف بك وهو صبي له ٩ سنوات (كذا) من العمر .

وانتخب نائبا عن لواء المنتفق في مجلس المبعوثين التركي وهكذا بقي ممثلا للعراق ومحافظا على النيابة في الدورات الانتخابية ووقعت كارثة الحرب العظمى وهو في فروق وبعد الهدنة اقفل آئبا الى بلاده وماعتم ان كر راجعا الى فروق لتسوية شؤونه لانه اعتزم على ان يقطن في العراق ويلازم تربة وطنه المقدس حيا وميتا وفي ١٩٢٢ عاد الى العراق وتجول بين البصرة وبلاد المنتفق وكوت

الامارة قليلا فعين وزيرا للعدلية في الوزارة النقيبية الثانية ثم وزيرا للداخلية في الوزارة النقيبية الثالثة ثم تولى رياسة الوزارة فنظم وزارته الاولى ثم صار رئيسا للمجلس التأسيسي ثم وزيرا للداخلية في وزارة الهاشمي ثم نظم وزارته الثانية واسس حزب التقدم الذي لم يزل — الى آخر ساعة — رئيسه وحامل مبادئه ثم استقال عن (كذا) رياسة الوزارة وانتخب رئيسا لمجلس النواب في دورتين ثم نظم وزارته الثالثة فحل المجلس النيابي وباشر اجراء انتخاب نواب انشط واكثر دربة من نواب المجلس المنحل وذلك تمهيدا لما يريد ان ينهض به من المطالبة بحقوق البلاد.

ولما يئس من الحصول على مطاليب البلاد « رفس الكرسي » واستقال من الوزارة كاحتجاج على التصلب الذي كان يلاقيه في حصول تلك الامال وكم بذلت جهود وقطعت وعود في سبيل حمله على عدم الاستقالة فلم تطب نفسه لانه لم يجد فيها بصيصا لسراج الامل وهكذا مضت الاستقالة فانتخب رئيسا لمجلس النواب ومن هذا التاريخ بدأت ظواهر التأثر او القنوط تبدو عليه ولكنه كان يغطيها برزانته وابتسامته العذبة وكم حاول ان يغادر العراق وينجو بذلك القلب المثخن بالجراح الى الاستانة ولكن المقامات العالية حركت نخوته واخلاصه واستبضت عرقه الكريم وناشدته بالعروبة والوفاء لها فتحول عن سفر الاستانة الى نزهة صيفية قصيرة يقضيها في ربوع لبنان وتوجه الى لبنان وكانت حالة البلاد السياسية متضعضعة تتطلب سياسيا حازما حنكته التجارب والابصار شاخصة الى عبد المحسن والثقة تحوم حوله مرفرفة وهو تحت شجرة الارز اللبنانية في هذه الظروف وتفتحت بعض الشقوق من السياسة المصمتة فارسلت بصيصا من شعاع الامل وذلك اثر تقلد وزارة العمال الشؤون البريطانية فاجتنب عبد المحسن بك من لبنان اجتذابا وعلى اثر حضوره العاصمة كلف تنظيم وزارته الرابعة.

فاشترط في قبولها اعطاء الوعد الصريح من المراجع العالية للحليفة بالغاء المعاهدات والاتفاقيات واعطاء العراق كرسيا في مجلس عصبة الامم بدون قيد ولا شرط والدخول في مفاوضات لعقد معاهدة جديدة على اساس الاستقلال التام وان يسعف في بنود المعاهدة اسعافا يمكن العراق من الوقوف على قدميه في

عام ١٩٣٢ فلاقى تنشيطا ومساعدة جدية من السر كلايتن صديق العرب العاطف على قضيتهم مساعدة انبضت البرق بين بغداد ولندن ورنت اسلاكه بتقارير كلايتن الطافحة باحقية المطالب العراقية حتى تساهلت تلك المراجع التي كانت متصلبة وطيرت النبأ الطيب الذي نغصه القدر المفاجيء بوفاة السر كلايتن في اهم وقت وادق ظروف الحاجة اليه فتسلم السعدوني ذلك الربح السياسي ومسك عليه بكلتا يديه ونظم وزارته الرابعـــة وبين يديه مصباح الامل والرجاء يشع بزيت التجربة والحنق السياسي وقد راعى في تاليف وزارته هذه قضية البلاد اكثر من الاعتبارات الحزبية فنهض في حفلة مراسيم تنظيم الوزارة ويده مملوءة بالربح السياسي . . .

١ـ الحداد في العاصمة (عن العالم العربي بتصرف قليل)

امر حضرة صاحب الجلالة بتعطيل جميع الدواوين الرسمية فعطلت من الساعة ١١ من صباح الدفنة الى المساء . وماعتمت الاسواق ان اقفلت حوانيتها ورفع كثيرون من اصحاب المحلات اعلا ماسودا وكذلك فعل اصحاب المحلات التجارية الكبرى .

٢ـ التشييع والدفن

اشتركت العاصمة كلها بتشييع جثمان الفقيد على اختلاف اجناس اهاليها وطبقاتهم وقد انتشروا من دار الفقيد الكبير الى مرقد الكيلاني .

وفي الساعة الثانية ونصف بعد ظهر الـ ١٤ من شهر ت ٢ (١٩٢٩) انتظمت المواكب مراعية المنهاج الذي نهجته الحكومة . فمثل جلالة الملك المعظم سمو الامير غازي ولي عهد العراق . ومثل حكومة الدولة البريطانية فخامة نائب المعتمد السامي فسارا وراء الجنازة بثيابهما الرسمية وتلاهما كبار الدولة طبقات طبقات .

وكانت الجنازة الكريمة ملفوفة بالعلم العراقي وموضوعة على مركبة مدفع وكان السير بها هادئا جدا على نغم الموسيقى الحربية الشجي وعلى جانبي طريق الموكب صفوف الجنود من مشاة وخيالة تتبعهما الشرطة .

وفي الساعة الرابعة ونصف وصل الموكب الى المرقد الكيلاني فاخذ الجنازة الخامون وحملوها على اكتافهم وادخلوها الحضرة الكيلانية فصلى عليها اصحاب السماحة النقيب والمفتي والعلماء . ثم تقدم الخطباء والبنوا الفقيد احسن تابين وفي الاخر دفن الجثمان في مقبرة الحضرة الكيلانية بين دوي المدافع وبكاء الكبار وعويل الصغار مستنزلين الرحمات الواسعة على تربته الطيبة .